مقدمة المترجم

تعد الترجمة من أقدم أوجه النشاط الإنساني حيث ظهرت بظهور الحاجة إلى وسيلة للتفاهم بين البشر. وقد لعبت الترجمة ولا زالت دورا هاما في التقارب بين الحضارات والشعوب. ويأتي كتابنا هذا في هذا الإطار حيث نتعرف من خلاله على تراث شعوب تربطنا بها صلات تاريخية قديمة.

يتناول الكتاب موضوع الأدب الشعبي عند شعوب آسيا الوسطى التركية والتفاعل المتبادل بينه وبين الأدب العربي. ويعني بالأدب الشعبي الأدب الذي يصدره الشعب، فيعبر عن وجدانه ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية. وقد استخدمت لفظة "فلكلور" للتعبير عن الفنون والآثار الشعبية القديمة. وتتكون لفظة "فلكلور" من شقين هما "فولك" وتعني الشعب أو الصف من الناس و"لور" وتعنى الحكمة. ويقوم الأدب الشعبي بالعديد من الوظائف وأهمها الوظيفة الاجتماعية حيث يساعد على تماسك المجتمع كما أن له وظيفة تربوية وإرشادية.

والشعوب التركية أو الناطقة بالتركية هي شعوب أوراسية تقيم في شمال ووسط وغرب أوراسيا، ويتحدثون مجموعة لغات تنتمي لعائلة اللغات التركية. وتشترك فيما بينها "ينسب متفاوتة" بسمات ثقافية وتاريخية محددة. يستخدم مصطلح "ترك" "Turkic"

للتعبير بشكل واسع عن مجموعة الإثنيات اللغوية لهذه الشعوب، مثال على ذلك الأذر والكازاخ والتتار والكيرجيز وأتراك الجمهورية التركية والتركمان والأويغور والأوزبك، بما في ذلك مجمعات الحضارات القديمة مثل الهون والبلغار والكومان (القبجاق) والآفار والسلاجقة والخزر والعثمانيون والمماليك والتيموريون ويعتقد أن الكسنجنو من ضمن هذه الشعوب. تعتبر أواسط آسيا هي الموطن الأصلي للشعوب التركية، ولكل شعب من هذه الشعوب إقليمه ومنطقته المميزة، ومع ظهور الهجرات القديمة انتشرت اللغة التركية في مناطق أخرى مثال ذلك آسيا الصغرى (الأناضول) أو ما تعرف حالياً بالجمهورية التركية، وفي حين أن مصطلح "ترك أو أتراك Turk" يطلق على كل فرد من أفراد هذه الشعوب، فإن مصطلح "تركي Turkish" تعني بشكل خاص مواطني الجمهورية التركية ولغتهم الرسمية.

وترجع أهمية موضوع الكتاب إلى أنه يعد الأول الذي يتناول هذا الموضوع الهام ويلقي الضوء على فن ثري وجنس أدبي قديم تكاد جذوره تعود إلى ظهور الإنسان على وجه الأرض. وهو فن تفرد فيه العرب عن غيرهم وأثروا الإبداع العالمي بإنتاج غزير وغني. كما أن قضية التفاعل المتبادل بين الأدبين العربي والتركي أيضا تمثل أهمية كبيرة للدارسين والباحثين والمهتمين بالدراسات الأدبية عامة والأدب المقارن على وجه الخصوص.

وفي سبيلنا لترجمة هذا الكتاب واجهنا بعض الصعوبات المرتبطة بوجود الكثير من أسماء الأشخاص والأشياء والتي توجب علينا البحث في المراجع والمصادر حتى نجد الأصل الصحيح لها حيث إنه قد تمت روسنتها وتوجب البحث عن أصولها العربية. والأمر نفسه ينطبق على العديد من النصوص النثرية والشعرية التي ترجمت من العربية إلى الروسية وكان لزاما البحث عن أصولها العربية. كما وجدنا من الضروري إضافة عدد من الحواشي السفلية لتفسير وتوضيح الكثير من المفاهيم التي

ربما تغيب عن القارئ العادي وكذا إلقاء الضوء باختصار حول بعض الأعلام والأماكن حتى تكتمل الفائدة من الكتاب. وقد قمنا بترجمة أغلب الحواشي السفلية باستثناء فقط تلك التي تفسر أو تشرح ألفاظا عربية أو تلك التي تعود إلى ترجمات لنصوص عربية وكذا تلك التي لا تهم سوى الباحث الروسي. وقد أرفقنا في نهاية الكتاب ثبتا بالمصطلحات الروسية الواردة في الكتاب وترجمتها إلى العربية وكذا مسردا بأهم المصطلحات.

وبقي أن أوجه كلمة شكر إلى جامعة الملك سعود على تكرمها بنشر هذا الكتاب. كما أتوجه بالشكر إلى الزملاء والأساتذة المحكمين الذين أبدوا ملاحظات مفيدة كان لها من الأثر ما أرجو أن يتجلى لقارئها. وأخيرا أشكر عائلتي التي كانت لي نعم العون في كل مراحل هذا العمل المضني والممتع في آن واحد.

والحمد لله الذي وفقني وأعانني على إنجاز هذه الترجمة ، ، ،

محمد نصر الدين الجبالي

المقدمة

يرتبط الأدب في وعينا ارتباطا وثيقا بفن الكتابة، حيث تحظى الكلمة المكتوبة بأهمية كبيرة. غير أنه من المعروف أن ثقافات بأكملها قد تشكلت وانتشرت بفضل التقاليد الشفهية. وقد شهد العالم المعاصر تبلور توجه يعود بالأدب الشفهي في أصوله إلى فن الفلكلور.

ونأمل من دراستنا هذه أن نساعد في تصحيح الاعتقاد الخاطئ حول العلاقة المتبادلة بين الكلمة المكتوبة والشفهية. ويمكننا اليوم بسهولة ملاحظة التنافس الدائم بين هذين الأسلوبين في التعبير عن الفكر الإنساني: سواء من ناحية الشكل أو الانتماء إلى مختلف أنماط الحضارة. لم يكن هذا الحاجز المانع بين الكلام والكتابة أبدا قائما في الماضي، بل على العكس، كانا دائما ما يكملان بعضهما البعض. حتى أن الأدب العربي المتعاظم، والذي ينقسم عادة إلى "الراقي" و"الرديء" يحتوي على آثار للتفاعل المتبادل أعمق مما يبدو للوهلة الأولى.

وقبل ظهور الإسلام شهدت الجزيرة العربية الجاهلية (الوثنية وغير المستنيرة) توافد الناس من كافة أصقاع الأرض إلى سوق عكاظ حيث كان يتم تبادل ليس البضائع فحسب بل والأشعار التي كان الشعراء يسحرون بها الجموع الهادرة من الناس ويغمرونهم بأمواج من الوله والحكمة والشوق والطمأنينة. وكان السائد هنا شيء واحد، ألا وهو كلمة الإنسان المسموعة التي تمنحه القوة في مواجهة ظروف الطبيعة.

وقد كان قدر الأدب العربي الذي ورث ثراء آداب كثيرة ويعد هو نفسه فنا عميقا وغنيا بالمواهب، أن يصبح مع مرور الزمن الذخيرة نفسها التي ساعدت على إثراء مختلف مواضيع وفنون الآداب الأخرى.

ولهذا السبب نجد أنه ليس غريبا أن يحتوي كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع على شخصيات من أساطير أيسوب أو ربما كاتب أساطير صيني لا نعرف اسمه على خلفية قصص الحيوان الهندية التعليمية، الأمر الذي جعل من هذا العمل كنزا ننهل منه حتى يومنا هذا.

وتتمه لما سبق نقول إن ظواهر من خيال الناس الجامح كالجن والأرواح قد التحمت في شبه الجزيرة العربية نفسها في فانتاسماجوريا مذهلة للصحراء. كل هذه المؤثرات المتناقضة انعكست بلا شك على النثر الشفهي العربي وبالتالي على الأدب بشكل عام.

وقد بدأت دراسة الأدب الشعبي العربي بشكل منظم منذ زمن قريب، غير أن الاهتمام بهذا المجال في تزايد مستمر. لقد أضحت الكلمة المنطوقة بدلالتها وقوانينها الخاصة مادة للدراسة الحثيثة من جانب الكتاب الساعين لخلق شكل جمالي جديد يسمح بالانتقال من الخاص إلى العام بالاعتماد على الأساس الراسخ في الثقافة الأصيلة لشعوبهم.

إن التفاعل المتبادل والعلاقات الإبداعية التي تربط الفلكلور العربي بالإبداع الفني الشفهي عند الشعوب الناطقة بالتركية[1]،[2] في آسيا

---

(١) قمنا بترجمة أغلب الحواشي السفلية باستثناء فقط تلك التي تفسر أو تشرح ألفاظا عربية أو تلك التي تعود إلى ترجمات لنصوص عربية وكذا تلك التي لا تهم سوى الباحث الروسي. (المترجم)

(٢) الشعوب التركية أو الناطقة بالتركية هي شعوب أوراسية تقيم في شمال ووسط وغرب أور آسيا، ويتحدثون مجموعة لغات تنتمي لعائلة اللغات التركية. وتشترك فيما بينها "بنسب متفاوتة" =

المركزية[1] يمثل قضية متشعبة نذكر من بين جوانبها قضية دراسة العلاقات المتبادلة بين الفنون الملحمية في فلكلور شعبين مختلفين.

ولكي نحدد السمة الوطنية لفلكلور شعب ما يجب دراسة تقاليده الفنية من الجانب التاريخي المقارن وذلك بمضاهاتها مع نماذج الإبداع الفني الشفهي عند الشعوب الأخرى. إن الهدف الأساسي لعلم الفلكلور المقارن يتمثل في إبراز الملامح المشتركة والمختلفة بين الاتجاهات العامة لتطور فن الكلام على أساس الدراسة المقارنة لمؤلفات الإبداع الشفهي عند مختلف الشعوب.

والمعروف أن كل مرحلة في التطور التاريخي تولد علاقات اجتماعية تميزها عن غيرها. وكذا كل مرحلة في العملية التاريخية الفلكلورية تولد تنوعا أسلوبيا في الشكل والمضمون وتطورا للفكر الاجتماعي الذي تفرضه ضروريات محددة. وكما أن كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي للبشرية تولد أشكالا من العلاقات الاجتماعية

= بسمات ثقافية وتاريخية محددة. يستخدم مصطلح "ترك" "Turkic" للتعبير بشكل واسع عن مجموعة الإثنيات اللغوية لهذه الشعوب، مثال على ذلك الأذر والكازاخ والتتار والقرغيز وأتراك الجمهورية التركية والتركمان والأويغور والأوزبك، بما في ذلك مجمعات الحضارات القديمة مثل الهون والبلغار والكومان (القبجاق) والآفار والسلاجقة والخزر والعثمانيون والمماليك والتيموريون ويعتقد أن الكسنجنو من ضمن هذه الشعوب. تعتبر أواسط آسيا هي الموطن الأصلي للشعوب التركية ولكل شعب من هذه الشعوب إقليمه ومنطقته المميزة، ومع ظهور الهجرات القديمة انتشرت اللغة التركية لمناطق أخرى مثال ذلك آسيا الصغرى (الأناضول) أو ما تعرف حالياً بالجمهورية التركية، وفي حين أن مصطلح "ترك أو أتراك Turk" يطلق على كل فرد من أفراد هذه الشعوب، فإن مصطلح "تركي Turkish" تعني بشكل خاص مواطني الجمهورية التركية ولغتهم الرسمية. (المترجم)

(١) يقصد ببلدان "آسيا المركزية" – الجمهوريات التالية: أوزبكستان وطاجكستان وتركمنستان وكيرغيزيا وكازاخستان وأفغانستان. وقد شاع استخدام هذا المصطلح بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. أما مصطلح "آسيا الوسطى" فيقصد به البلدان سابقة الذكر باستثناء كازاخستان. وكان هذا المصطلح يستخدم إبان فترة الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

الجديدة وغير المعروفة في السابق، فإن كل مرحلة من مراحل تطور العملية التاريخية الفلكلورية تشهد اكتمالا للتقاليد الأدبية القائمة قبلا وتأسيس نماذج فنية ومضامين ووسائل للتعبير الفني تتفق ومتطلبات العلاقات الاجتماعية الجديدة. ويمكن القول إن تاريخ البشرية يعكس جملة العلاقات الاجتماعية التاريخية عبر مختلف مراحل تطورها. وعند تناول القضية من هذه الوجهة نجد أن الفلكلور المعاصر عند الشعوب التركية يتضمن ظواهر للتفكير الفني تعد نتاجا للتقاليد والصلات الأدبية والتفاعلات الإبداعية المميزة لجميع مراحل العملية التاريخية الفلكلورية.

ويجب دراسة التفاعل المتبادل بين فلكلور الشعوب التركية في آسيا المركزية والفلكلور العربي في ضوء علاقته بالتطور التاريخي للعلاقات الاجتماعية. وعادة ما تكون العلاقات المتبادلة بين الشعوب ذات التقاليد الملحمية الراقية ثنائية، أي تتضمن عمليات تفاعل متبادل وإثراء وكذا اكتمالا للتقاليد الفنية القائمة. إن العلاقات المتبادلة بين التقاليد الفلكلورية المختلفة من ناحية اكتمالها الفني أي التي تقف على مستويات مختلفة من التطور تبنى على أساس واحد. وفي نفس الوقت نجد أن عملية التفاعل المتبادل عادة ما تكون ذات وجه واحد وتنشأ من تغلغل التجربة الإبداعية والنماذج والمضامين والموتيفات الفلكلورية ذات التقاليد الملحمية الثرية في فلكلور شعب صاحب إبداع شعبي أقل تطورا.

إن التحليل الكامل والجامع لمراحل التطور التاريخي للعلاقات الفلكلورية بين الشعوب التركية والعربية وكذا أشكال ووسائل العلاقات الإبداعية المتبادلة يظهر أن الصلات المتبادلة بين الإبداع الشفهي لهذه الشعوب كانت ذات وجهين، أي أنها تأسست على علاقات متساوية القوى. وبطبيعة الحال يمكن أن يطرح السؤال التالي نفسه: "لا شك أن الدين والثقافة والأدب الفني والعلمي والتنويري باللغة العربية قد أثرت بشكل كبير على شعوب آسيا المركزية. وتلك حقيقة تاريخية. وقد أدى اعتناق شعوب ما وراء النهر للإسلام إلى أن تغلغلت كثير من النماذج والمضامين المميزة

للمنظومة الفنية في الفلكلور العربي في الإبداع الشفهي عند الشعوب التركية غير أنه وحتى يومنا هذا لم تدرس بشكل جيد المسائل التي تؤكد تأثير فلكلور الشعوب التركية في آسيا المركزية على الإبداع الشعبي الشفهي العربي. فكيف يمكن الحديث في ظل وضع كهذا عن علاقات متساوية؟"

وإذا كان مصطلح "الفلكلور العربي" يفسر كدلالة على الإبداع الشعبي الشفهي عند شعوب البلدان العربية المعاصرة فإن الصلات المتبادلة بين الفلكلور التركي والعربي تبدو كظاهرة ذات وجه واحد تشمل عملية استيعاب الفلكلور التركي لتقاليد الإبداع الشعبي الشفهي العربي. وفي الحقيقة، فإن الاستيعاب الإبداعي لتجربة أدب صاحب تقاليد فنية غنية من قبل أدب آخر أقل تطورا يعد إحدى السنن الجمالية التي تحدد تطور الآداب العالمية، وهذه العملية ليست دليلا على سيطرة أدب شعب ما على غيره. وبعبارة أخرى يعد ذلك وسيلة للتفاعل المتبادل بين التقاليد الأدبية ولا يجب فهمه على أنه محاكاة لأدب آخر أكثر تطورا. إن أي أدب (بما في ذلك الفلكلور) يتطور ويكتمل عن طريق استيعاب التجربة والتقاليد الإبداعية المتقدمة التي ابتكرتها آداب أخرى أكثر تطورا، حيث تولد التقاليد الإبداعية المتقدمة بفضل عملية تطور الفكر الفني بوصفه منتجا للتفكير الإنساني المشترك. وتصبح هذه التقاليد ظاهرة فنية مشتركة في الفلكلور العالمي. ولهذا السبب وحتى في حالة عندما ينظر إلى العلاقات الفلكلورية بين الشعوب العربية والتركية كظاهرة ذات وجه واحد (والأمر لا يبدو على ذلك في حقيقة الأمر) فإنه يجب الحديث ليس عن غلبة أدب على آخر بل حول عوامل التكامل بين التقاليد الفنية. فقد أثرت تقاليد الفلكلور العربي والتي تتجسد في الأدب الإسلامي والأداء الشفهي بشكل إيجابي ومثمر على التطور الإبداعي لفلكلور الشعوب التركية في آسيا المركزية.